الاستدلال الجدلي عند ابن شهر أشوب في متشابة القران والمختلف فيه

د. سلوى حضير بوهان القريشي
جامعة الكوفة/ كلية الفقه

المقدمة:

لقد شرّع القرآن الكريم الجدل والمناظرة ، وجعل لها حدوداً وضوابط وأكد ضروریاتها وأهميتها ، وذلك في كثير من آيات الذكر الحكيم ، وهذا ما يصور لقارئ القرآن الكريم أن للجدل والمناظرة جانباً حيوياً في حياة سائر الأديان ، إذ ما من رسولٍ أو نبي ألا وقد ناظر قومه وحاججهم وجادلهم في أثبات صحة ما يدعوهم إليه ومما يزيد الأمر وضوحاً هو ان الله تعالى قد أ مر رسوله الكريم (ص) بمجادلة المشركين ، ودعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة فقال تعالى : { ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } النحل / ١٢٥ كما أمر الله تعالى بمجادلة أهل الكتاب عن ط ريق الحكمة والموعظة الحسنة لما في ذلك من إلانة لقلوبهم وانصياعهم إلى الحق ، فقال تعالى : {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} العنكبوت /٤٦ ، لان الغلظة في المناظرة والجدل لا تزيد الطرف الآخر الا نفوراً وعناداً وتعصباً وتمسكاً بالباطل كما أوضحه تعالى في قوله الكريم : {وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} آل عمران / ١٥٩ .

ولم يقتصر هذا الأمر على مناظرات نبينا (ص) مع مشركي مكة ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، وانما كان ذلك الأسلوب من المناظرة والجدل مُتَبعاً من قبل الأنبياء (عليهم السلام) مع مشركي أقوامهم ، كما في محاجة قوم إبراهيم (ع) وجوابه لهم : {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ} الأنعام / ٨٠

ومثله أيضاً ما جاء في محاجته (ع) لقومه حينما كسّر أصنامهم ، وقد ألزمهم بالحجة والعقل ، والرجوع إلى وجدانهم وعقولهم ، قال تعالى : {قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} الأنبياء / ٦٢ـ ٦٥

ومنها مجادلة نوح (ع) لقومه الذين ركبوا رؤوسهم عناداً وازدادوا غيّاً وفساداً حيث قالوا له وهو يجادلهم في الله تعالى:{قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا}هود /٣٢.

هذه الشواهد القرآنية دليل واضح على مشروعية الجدل والمناظرة في الإسلام ، إذ يكشف عن الأسلوب الأمثل في المناظرة النبوية والذي يجب مراعاته بين المتناظرين

المبحث الأول

الجدل والاستدلال في لغة القرآن الكريم

الجدل في اللغة : من جَدَلَ ، جدلتُ الحبل اذا أحكمت فتله[١] ، يقال : جَدلَ جدلاً الرجل : اشتدت خصومته ، وجادل جدالاً ومجادلة : خاصَمَه ، تجادلاً : تخاصماً [٢] ، والمجادلة : المناظرة لإفحام الخصم ، وإسكاته لإظهار الحق . [٣] وخلاصة المعنى اللغوي للجدل أنّه : اللدَدَ في الخصومة ، والقدرة عليها ، وامتداد الخصومة ، ومراجعة الكلام ، وبهذا فإن الجدل في أصله اللغوي يدور على معاني القوة والصلابة وشدة البأس ، وهو ضربٌ من الخصومة والمغالبة بالحجة يدور بين المتجادلين في قضية ليسوا فيها على رأي ثابت فيما دلّ على ن تكون له الغلبة فيه والانتصار بما يدلي من حجج ، ويصطنع من رسائل الإقناع مثلهما كمثل المصطرعين لا يزال كلاهما يعالج مقاومته حتى ينتصر عليه ، ويلقي به على الأرض واهناً مخذولاً .

والجدل في الاصطلاح يعني : الخصومة والمنازعة في البيان والكلام لإلزام الخصم بإبطال مدعاه ، واثبات دعوى المتكلم ، وأكثر ما يستعمل الجدل والمجادلة في صراع الآراء والأفكار ، حيث يحاول كلّ مجادل أن يحكم رأيه ، ويناضل عنه في صلابة [٤]

وقد عرفه الجرجاني بقوله : ((دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة)) [٥] .

وعرّفه الشيخ المظفر بأنّه : ((صناعة علمية يقتدر معها – حسب الإمكان – على إقامة الحجة من المقدمات المسلمة على أي مطلوب يراد وعلى محافظة أي وضع يتفق ، على وجه لا تتوجه عليه مناقضة)) . [٦]

فكل محاورة فكرية تحدث عنها القرآن الكريم تُعَد داخلة في جدل القرآن ، وان لم تكن بلغة الجدل فهي بمعناه كما يدل عليه الوضع اللغوي .

وقد عُرِف الجدل كعلم يُدرس عند فلاسفة اليونا ن كأفلاطون وأرسطو ، أما في البيئات الإسلامية فبقي في عصر الصحابة والتابعين مقتصراً على ما تدعو اليه الحاجة من تبيان الحق ، ودفع الشُبه ، وترجيح الأدلة في الاجتهادات الفقهية ، ولم يقع في العقائد إلا نادراً لأنهم كانوا يعرفون الأدلة نصاً ومعنىً بفطرتهم السليمة .

وبعد ان ترجمت الثقافات والعلوم اليونانية والفارسية إلى العربية ، وظهرت مدارس علم الكلام ، وانتشرت المذاهب الفلسفية ، وهبَّ الصراع الفكري بين دعاة الحق ، ودعاة الباطل ، تكونت من تلك المجادلات والآراء الفلسفية ثروة فكرية هائلة ، فقد تصدى علماء الشريعة الإسلامية لتلك النزعات والآراء بالقلم واللسان وجادلوا بالحجة والبرهان ، فنقضوا وأبطلوا ما روجوه من دعاوى لا تتفق ومبادئ الإسلام .

لهذا كان الجدل مدعاة إثارة وهياج يدفع إلى المخاشنة والسخرية وربما دفع إلى القتال والانتقام ، وهيهات من هذه الملابسات ان يبلغ الجدل منتهاه ، ويؤتي ثمرته المرجاة الا مع الحلم والإحسان، ورياضة النفس والاحتمال.
فكلّ مسلم رضي بالله عز وجل ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد (ص) نبياً مكلف بالدعوة إلى الإسلام ، والدفاع عنه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذه رسالة كل مسلم في حياته ، وانطلاقاً من هذا المبدأ الذي حث القرآن الكريم عليه .
نهض المسلمون بواجبهم في الدعوة والدفاع ، ولما كان الداعي والمدافع لابد أن يلتقي بكل أصناف الناس ، ويصطدم بمختلف التيارات والثقافات والاتجاهات، فلا بد له من إتقان أساليب الدعوة والدفاع المتمثلة في ا لحوار ، والجدل بالحسنى وأصول الدعوة والمناظرة.
وقضية التفسير لا تخلو من الجدل ، إذ تتخذ مستويات عدة من الفهم ، والوعي والإدراك ، ونحن اذا تتبعنا البيان القرآني اتضح لنا أنّ القرآن الكريم هو علم الله سبحانه وتعالى ، وان الله جل وعلا بيّن ذاته المقدسة من خ لال هذا الكتاب العظيم .... وهو كتاب للإنسانية هداية ، وتنظيماً ، وإرشاداً وذلك على جميع الصُعْد الفكرية والسياسية والاقتصادية والتربوية....
إنّه كتاب لبناء الحياة ، وصناعة التاريخ ....
وقد خاض المفسرون في تفسير وتأويل الآيات المتشابهات منذ عصر الصحابة فللتابعين إلى يومنا هذا ، ولم يَدعوا آية قرآنية دون ان يتدبروا معانيها ، ويقولوا فيها كلمتهم.
وكان لابن شهرآشوب دورٌ بارزٌ في هذا المجال ، إذ جمع في كتابه (متشابه القرآن والمختلف فيه) جملة من أقوال المفسرين والفقهاء واللغويين ، وكانت له ردودٌ ومناقشات وج دل ومناظرات ، فإذا تعددت الوجوه فلا يمتنع من إعطاء رأيه معتمداً على أسس واضحة في هذه المناقشات ، وهذه الأسس هي النصوص القرآنية أولاً ، ومن ثم الشواهد الأدبية ، والمعنى المختار للآية ، فهو يرد ويقبل الآراء في ضوء هذه المبادئ ، والملاحظ أنّ هذه المبادئ تنتهي إلى مآلٍ واحد يعتمده المفسر ، فهو ينطلق من القرآن أساساً في التفسير ، وله طريقة متميزة في الرد وإعطاء رأيه ، إذ يختار ما يراه مناسباً لحال القول ، ومقوياً لحجته ، فتارة يرد بالقرآن نفسه ، وتارة باللغة نحواً وبياناً ، وتارة بالأدب شعراً ونثراً.
وقد وقف ابن شهرآشوب من هذه المواقف موقف الناقد الخبير ، والفاحص الرائد ، فأورد جملة من آراء العلماء ، وأفاض برأيه بعد إيرادها ، وحملها على الاتساع في اللغة والمجاز من القول، ورد المتشابه من الآي إلى المحكم منها.
وسنتناول بعضاً من محاولاته التفسيرية في نوعين ، أحدهما الآيات التي تضمنت مادة الجدل نصاً ، وثانيهما الآيات التي ظهر فيها الجدل طريقة لإقامة الحجة.

أوّلاً : الآيات التي تضمنت مادة الجدل نصاً

في قوله تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } الحج / ٣ .

قال ابن شهرآشوب إنّ الجدل هنا بغير علم ، وإدراك ووعي ، وإقتصر على التقليد الذي ذمَّه الله تعالى ووبّخ من اتبعه ، ولو جاز التقليد لم يتوجه إليه توبيخ ولا لوم . (٧)

قال ابن عباس (٨) : دعا النبي (ص) الكفار واليهود إلى الإسلام ، فقالوا : بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، وعن الإمام الصادق (ع) قال (٩) : مَنْ أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال ، ومَنْ أخذ دينه من الكتاب والسنة زالتِ الجبال ولم يَزُلْ .

هذا النوع من الجدل – بغير علم – هو ما نراه اليوم كثيراً في مجتمعنا وخصوصاً فيما يتعلق بأمور الدين ، فقد أصبح الدين يُقتحم من قبل كل الناس – بعلم وبغيرعلم – ودون أن يُراعى فيه أيُّ تخصص بخلاف العلوم الأخرى فإن لها أسيجة من الحصانة والحماية .

وأما الجدل الذي قرنه الله تعالى بالدعوة فهو ما كان بقصد الوصول إلى الحق ودفع الباطل والدعوة بالحسنى : {ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ... } النحل / ١٢٥ . فقد أمر الله تعالى بالقول الحسن في الدعاء إليه والاحتجاج عليه . (١٠)

على هذا فان الجدل في القرآن الكريم على نوعين : ممدوح ، ومذموم .

والمذموم ما كان يقصد الغلبة والرياء والجدل للباطل ، أو بغير علم ، أو في مكان غير مناسب ، أو القصد الجدل فقط كما قال عز وجل : (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ) غافر / ٤ .

والجدل هنا مكابرة لأنها مجادلة في أمور بديهية ، وقال تعالى : (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) غافر / ٥ .

والجدل هنا غايته نصرة الباطل ومدافعة الحق .

أما الجدل المحمود فهو ما كان بقصد الوصول إلى الحق ،ودحض الباطل بالحكمة والموعظة الحسنة ،لأنّ مجادلة الظالمين غير مجدية ،وإنما يجدي معهم السلاح والقوة .

وقد دعا القرآن الكريم بالوقت نفسه إلى إحضار الدليل أو البرهان ، ليكون حجة داحضة لآرائهم المزيفة فقال : (قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) البقرة / ١١١ .

وابرز صور الجدل في القرآن الكريم هي الصور التي وقع الجدل فيها بين الأنبياء والمرسلين وأقوامهم ، تلك الصور التي استهدف منها القرآن إلقاء الضوء الكاشف على ما كان بين النبي (ص) وقومه من جدل .

ان الموضوعات تكاد تكون واحدة من حيث إنّ عقيدة الأنبياء والمرسلين واحدة ، ومن حيث ان كل واحد منهم انما يبلغ قومه رسالة الله أليهم ، وإنّه إنّما

يفعل ذلك تلبية لاحتياجاتهم الدينية ، ولا يأخذ أجراً على ذلك إنه البشير النذير الذي يحمل رسالة السماء اليهم .

فمن هذه الصور مجادلة إبراهيم (عليه السلام) أباه وقومه ، فقال عز من قائل يحكي عنه : (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً) مريم / ٤٧ .

أوضح ابن شهرآشوب : ان وجه الاستثناء لأبيه من جملة ما أمر الله تعالى بالتأسي فيه ، انه لو أطلق الكلام لأوهم الأمر بالتأسي به في ظاهر الاستغفار للكفار واستثناء الاستغفار من جملة الكلام لهذا الوجه ، وان ما أظهره إبراهيم (ع) من الإيمان لم يكن معلوماً لكل احد ، وانما وَعَده بالاستغفار على مقتضى الفعل. (١١)

ويخاطب عزّ وجلّ الملحدين والمشركين فيقول : {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} الأنعام / ٧ .

ينقل ابن شهرآشوب استدلالاً لأبي علي بهذه الآية : إنّه متى كان معلوم الله انه لو أتاهم الآيات التي طلبوها لآمنوا عندها ، ولولا ذلك لم يحتج على العباد في منعه آياتهم التي طلبوها ، انما منعهم إياها لأنّهم كانوا لا يؤمنون ، ولو آتاهم اياها لقالوا : ((إنْ هذا الا سحرٌ مبين)) ، وهذا دليل على وجوب اللطف . (١٢)

كما جادل أهل الكتاب بقوله عز وجل : {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت / ٤٦ ، فلم يكتفِ القرآن في هذه الآية بحثّ المؤمنين على أن يكون جدالهم لأهل الكتاب بالتي هي أحسن ، ولكنه زاد فحثّ الرسول على مودتهم واستمالة قلوبهم ، والمجاهرة بأنهم يؤمنون بما أُنزِل إليهم ، وما أُنزِل على أنبيائهم ، وأنهم وإياهم يعبدون إلهاً واحداً لا خلاف عليه .

هذا الحوار و الجدل القرآني مع أصحاب الملل المختلفة يدفع كلّ مسلم صادق في إيمانه أن يسلك سبيل القرآن في الدعوة بكل الوسائل الخطابية والجدلية والبرهانية وهي المعاني التي يشير أليها بعض العلماء عند استعراضهم للآية القرآنية {ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } الإسراء / ١٢٥ .

وقد نهى سبحانه وتعالى عن الجدال في الحج ، وجعله فيما ينهى عنه قرين الرفث(١٣)، والفسوق (١٤) فيقول : {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) البقرة / ١٩٧ فلا يدل على أن هذه الأشياء في غير الحج مباحة (١٥) ، وهذه الثلاثة قبيحة مستهجنة في غير الحج ، لكن تخصيص الحج يجعلها أشدّ قبحاً واستهجاناً .

ثانياً : الآيات التى تضمنت الجدل طريقة للمناقشة وإقامة الحجة

يدور جدل القرآن على ضروب من القضايا ، يكشف عن وجه الحق فيها ، وأنواع من الدعاوى الباطلة يدحضها ، ويدل على ما بها من زيف ، من ذلك

قضية إبليس إذ عصى ربه وأبى أن يسجد لآدم مع الساجدين ، ثم أقبل يباهي بأصله ويجادل عن نفسه ، ويجاهر بالصدّ عن سبيل الله في جرأة جامحة اذ يقول : {فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{١١} قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} الأعراف / ١١ - ١٢.

يورد ابن شهرآشوب مجموعة من آراء المفسرين حول قضية الخلق [١٦] يقول : قال الحسن وأبو علي المراد به : خلقنا آباءكم ، ثم صورنا آباءكم ، ثم قلنا للملائكة ...

وقال ابن عباس ومجاهد وقَتَادة والسُّدي : أي خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره .

وقد تناول ابن شهرآش وب الخلق بمعنى آخر غير المعنى السابق فهو يذكر المخاطب ويريد به أسلافه نحو قولهم : هزمناكم يوم ذي قار [١٧] ، وقتلناكم يوم الفُجَار [١٨]، وفضحنا كم يوم الجِفار[١٩] ، وبدّدنا جمعكم يوم النّسار [٢٠] .

كما تعرض لقضية الشرك بالله واتخاذ آلهة من دونه كما في قو له سبحانه : {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا } الأعراف / ١٩٠ ، أشار ابن شهرآشوب الى أنّها غير راجعة إلى آدم وحواء ، بل إلى الذكور والإناث من أولادهما فيكون تقدير الكلام : فلما آتاهما الولد الصالح الذي تمنياه جعل شرك أولادهما إلى غير الله . [٢١]

ومن الدعاوى الباطلة التي أبطلها دعوى بني إسرائيل ، أنّهم يؤمنون بما أنزل عليهم ولا يؤمنون بغيره ، اذ يقول الله تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } البقرة / ٩١ .

ادعى بعضهم أنّ هذه الآية دالة على التناسخ ، لكن ابن شهرآشوب رفض ذلك لأنه يجوز أن يكون خاطب قوماً بذلك ، على أن أوائلهم وأمثالهم ، ومن دينه دينهم فعل ذلك كما يقول لليهود : إنَّ بختنصر قتلكم ، وللمجوس إنّ العرب صنعت بكم يوم القادسية كيت و كيت ، وقد ذهب المعنى من قبل . [٢٢]

فالقرآن إذن لا ينكر الجدل ، ولا يضيق به ، وإلا فما باله يعول عليه في الإقناع بالتوحيد وفي مقاومة الشرك ، وتقويم الزيغ ، ورد دعاوى الكاذبين ، ولكن الذي ينكره منه هو إرسال الكلام فيه على عواهنه لا تعززه بينة ولا برهان ، ولذا نراه يكرر في غير موضع منه مطالبة المبطلين بما عندهم من حجج تشهد بأنّهم صادقون فيقول : {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ... } البقرة / ١١١ .

ولابن شهرآشوب رأي في هذه المسألة ، قال : جمع بين اليهود والنصارى في الحكاية مع افتراق مقالتيهما في المعنى ، وحكى عنهما للإيجاز والاختصار ، وتقديره : قالت اليهود ، لن يدخل الجنة الا من كان يهودياً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة الا من كان نصرانياً ، فأدرج الجنة عنهما للإيجاز من غير إخلال ، إذ شهرة حالهما أغنى من البيان ، فحكاه على المعنى ، وتقدير الكلام : وقال بعض أهل الكتاب : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقال بعضهم : لن يدخلها الا من كان نصارى . [٢٣]

وفي هذا تكريم للعقل وإعظام لقدره ، ودعوة إلى إعماله في شؤون الحياة وإقرارٌ بحقه في حرية الرأي ما دام له سند يعززه ، ويشد أزره ، وإلا كان حقيقاً أن يترك سُدى بين الآراء التي لا يعتد بها في أمور الدين والدنيا .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً } آل عمران / ١٧٨ ، فقد كسرت (إنّما) على رأي الاخفش ، ليجعله حجة لأهل القدر ، ويجعله على التقديم والتأخير ، كأنه قال : ولا يحسبن الذين كفروا إنّما نملي لهم خيراً لأنفسهم [٢٤] .

وعلى قول البلخي [٢٥] ولا يحسبن الذين كفروا أنّ إملاءنا لهم رضى بأفعالهم وقبول لها ، بل شرّ لهم ، لأنّا نملي لهم وهم يزدادون إثماً يستحقون به عذاباً أليما .

وعلى هذا يكو ن معنى الآية : نحن نمهلهم لتكون عاقبة أمرهم ازدياد ذنوبهم وأوزارهم من ألاثم ، فالآية لا تدل على الجبر مطلقاً ، بل هي خير دليل على حرية الإنسان واختياره .

وفي قوله تعالى : {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء... } آل عمران / ٢٦ ، استدلت الإمامية بها على أنّ الإمام ينبغي أن يكون معصوماً ، لانه لا يجوز أن يُعطي الله الملك من النبوة والإمامة للفاسق ، لأنّه تمليك الآمر العظيم من السياسة والتدبير ، فيجب عليهم الإقرار بالطاعة ، وأتباع الأوامر ، لأنه تعالى بيده إعطاء الملك لمن يستحقه ، ويقال : المراد بالملك : المال دون السياسة . [٢٦]

فالله سبحانه وتعالى مالك لما يؤتيه عباده ويجعلهم به ملوكاً ، ويؤتيه مَنْ يشاء مِن عباده ، ويعطيه من هو مستحق له ، وينزعه من أيدي الظلمة المتغلبين .

ويُعَد الملك مَن أعظم العهود ، لأنه يتضمن سياسة الأمة ، ويتعلق بأوامر الله ونواهيه،وقضاياه وأحكامه ، ولا يمكن أن يؤمَّن عليه الكافر ، ولا الفاسق ، ولا يجعل سبحانه الرعية مؤمنة والرعاة فسقة ، إذ تتجلى الحقيقة الإلهية مقترنة بالأسلوب

ـالعربي المبين في وصف هذه الظاهرة التي يتحتم أن يكون الملك لمن اختص بصفات فريدة ومميزة ، ولا يمكن أن تتحقق مثل هذه الصفات إلا لمن تطمئن إليه الروح ، ويتطلع إليه الخيال ، وهذا الوصف لا يكون الا لمن اختصهم الله بالرسالة المحمدية ، والعصمة العلوية .

وأكثر جدل القرآن موجز ، وهو على وجازته حاسم مفحم ، لا يدع مجالاً لمراجعة أو تعقيب ، فما القضية التي يعرضها أصحابها من المكذبين حتى تأخذهم الحجة الصادقة يرسلها تعالى خطاباً منه ، أو أمراً إلى الرسول يقولها حكاية عنه فتدمغهم وتُخرِس ألسنتهم .

قال عز من قائل : {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ا لرَّحْمَنِ إِنَاثاً... }الزخرف /

أي حكموا بذلك حكماً باطلاً [٢٧] ، فقد زعم الذين كفروا أنّ الملائكة بنات الله ، وأنّ عبادتهم لها قدر مقدور ، ولو شاء الله لصرفهم عنها ، فلا ذنب لهم فيها . فردّ الله عليهم أبلغ رد ، وأوجزه ، إذ قالوا لا علم لهم به ، ولا بينة لديهم عليه .
وقد يجنح القرآن الكريم إلى إطالة الجدل ، وبسط الحجة فيه ، أطالة في محاجة المستريبين بالبعث ، فذكرّهم بنشأتهم الأولى ، ثم بأطوار حياتهم منذ ان كانوا أجنة في بطون أمهاتهم ، إلى أن يتوفاهم الموت ، وتحتويهم القبور ، ثم ضرب لهم مثلاً من واقع الحياة فيه صورة لبعث الحياة بعد الموت يتمثل في الأرض الهامدة المقفرة حين ينزل عليها الماء فقال : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّ خَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ...}الحج /٥.
وأطال الجدل في إنكار الشرك ونفيه والتنديد بأهله ، فقد عدّد لهم من سوابغ نعمه ، وآيات قدرته ، والإحسان فيما يعهد الناس ، وفيما جرت به طبيعة الحي ، يحمل المرء على أن يقرّ بفضل المحسن أليه ، ويدين له بالحب والوفاء ، ويحس بحقه عليه
من الشكر والعرفان وذلك ح يث يقول : {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً } النحل / ٦٧ .
وللعلماء في الآية أقوال :
فقد استدل قوم بهذه الآية على تحليل النبيذ بأن قالوا :امتنّ الله علينا وعَدَّدَهُ من جملة نعمه علينا ، إذ خلق لنا الثمار التي نتخذ منها السَّكر والرزق الحسن [٢٨] .
قال الشعبي [٢٩] : انه أراد ما حلّ طعمه من شراب وغيره.
وقال آخر : لو أراد تحليل السكر لما كان لقوله : (ورزقاً حسناً) معنى ، لأن ما أباحه وأحله هو أيضاً رزق حسن ، فلِمَ فرَّق بينه وبين الرزق الحسن والكلّ شيء واحد .[٣٠]
والوجه فيه على حدّ تعبير ابن شهرآشوب أنّه خلق هذه الثمار لينتفعوا بها ، فاتخذتم منها ما هو محرم عليكم ، وتركتم ما هو رزق حسنٌ .[٣١]
ويبدو أنّ ابن شهرآشوب قد أعطى لهذا المعنى خصوصية للنِعم التي أباحها الله تعالى ، فالمنة به ظاهرة لتعجيل الانتفاع به ، وما حرّمه فوجه المنة أيضاً ظاهر، لأنه اذا حرم علينا ، وأوجب الامتناع ضَمِنَ في مقابلته الثواب الذي هو أعظم النعم فهو نعمة على كل حال .[٣٢]
ومن سأل عن معنى قوله تعالى : {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ... } آل عمران / ٤٥ .
فقيل في معنى الكلمة أقوال منها : إنّه أوجده بكلمة من غير واجد ، وهي قوله (كُنْ) كما قال : {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} آل عمران / ٥٩ .

وقول آخر : قيل لأنّ الله بشّر به في الكتب السالفة كما يقول الذي يخبرنا بأمرٍ يكون : قد جاء قولي وكلامي .

وقد تأتي بمعنى آخر : إنّ الله يهدي به كما يهدي بكلمته [٣٣] ، وقد تأتي الكلمة في موضع آخر بمعنى (الروح) لوصفه تعالى عيسى (ع) بأنّه (روح الله) ، وإنما وصف بذلك من حيث البشارة لهداية الناس من الضلال.

وعلى الرغم من كثرة كلام المفسرين حول معنى (الكلمة) إلاّ أنّ أقربها إلى الذهن هي ولادة المسيح الحاصلة في ظروف خارج نظام الطبيعة التي تقع ضمن {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس / ٨٢ .

وأما قوله : (بكلمة منه اسمه المسيح) ، إذ لم يقل (اسمها) فانه حمل الكلام على المعنى لا على اللفظ فذكّر ، لان معنى الكلمة هاهنا مذكر وهو عيسى (ع) ، أو الشيء، أو الولد ، أو الشخص وكل ذلك مذكر . [٣٤]

لكن عندما وردت الكلمة نفسها في سورة النساء أعطى سبحانه (الكلمة) حقها فأنثّ ضميرها قال تعالى : {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ... } النساء / ١٧١ ، فقال : ألقاها ولم يقل : ألقاه ، لما تقدمت أسماء المسيح وتعريفاته التي تؤمن من الإلباس وهي : المسيح و عيسى بن مريم ، وهذا من عجائب هذا الكتاب الذي لا يُدرَك غوره ، ولا ينضب بحره ، كما وصفه سبحانه : {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ... } فصلت / ٤٢ .

وكان الجدل في الغالب يدور حول محورين أساسيين :

الأول : العقيدة الدينية التي يحملها الرسول، تلك العقيدة التي يعارضونها والتي ينكرون مع معارضتهم لها نبوة النبي، ورسالة الرسول .

أما الثاني : فهو المبادئ والقيم الأخلاقية والمعايير السلوكية التي كانت الحياة تمارس على أساس منها ، يقول تعالى : {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} هود / ٥٤ .

فقوله (ع) : (أني بريء) إخبار عما أجابهم به هود بأن قال : أُشهِدُ الله على أدائي إليكم ، ونصيحتي إياكم ، وتكذيبكم إياي [٣٥] ، وإنما أشهدهم على ذلك وان لم يكونوا أهل الشهادة من حيث كانوا كفاراً فساقاً ، إقامة للحجة عليهم ، لا لتقوم الحجة بهم. [٣٦]

وواضحٌ من الجدل أنّ المح ور هنا هو الدعوة لله ، ولكنهم يأخذون على هود ما يدفعهم إلى رفض الدعوة ، يأخذون عليه أنّه لم يأتِهم ببينة ، وأنهم لن يتركوا آلهتهم التي يدعوهم إلى تركها ، وأنهم لن يؤمنوا به ولا بما جاء به ، وواضحٌ أيضاً أنهم قالوا هذا القول على سبيل التحدي ، وانه واجه هذا التحدي في النهاية بإعلان أنّه قد أبلغهم رسالة ربهم ، وأنّ الله قد يستخلف قوماً غيرهم ، ثم ينتهي الحوار بالحكم عليهم باللعنة في الدنيا وفي يوم القيامة.

وإظهار الحق ودفع الباطل لا يأتي إلا عن طريق الحوار الفكري والإلزام بطريق الحجة والبرهان ، وسُمّي الاستدلال القرآني بالجدل لما فيه من معنى مغالبة الخصم بالحجة والبرهان . [٣٧]

وكان عماد النبي (ص) في مجادلة المشركين وأهل الكتاب وغيرهم - القرآن الكريم- يحتج به عليهم لإثبات دعواه ، وكلما أرادوا اعتراضاً نزل في الرد عليهم قرآن يتلى، يعلن لهم فيه وضح الحق ، ويرد كيدهم في نحورهم .
وكتاب الله تعالى فضلاً عن أنّه معجزة النبي (ص) الكبرى ، وعن أنّه اشتمل على الرد على اعتراض المشركين وغيرهم على الإسلام هو فضلاً عن ذلك كله المثل الأعلى الكامل الذي لا يرتقي إلى بيانه محتج أو متكلم ، ولا يداني أساليب احتجاجه واستدلاله مستدل أو مجادل .
وقد اشتمل القرآن الكريم على مناهج في الاستدلال والجدل تبين الكثير من أحوال الجماعات الفكرية والنفسية ، وتكشف عن أدق نواميس النفس الإنسانية وفي مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام المؤثر والحجج الدافعة ، لذلك وجب ان نعرف شيئاً من أساليب جدله واستدلاله لا طمعاً في محاكاته ، ولكن للاقتباس من نوره ، والاهتداء بهديه .
ومن مناحي القرآن الكريم في الاستدلال قوله تعالى : {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} آل عمران / ٥٩ .
يُفيد ابن شهر آشوب أنّ خلق عيسى وآدم من أصل واحد وهو التراب ،ثم يجعله سبحانه وتعالى طيناً ثم يصير كالحمأ المسنون ، ثم يجف فيصير كالفخار . (٣٨)
ففي هذه الآية دليل قوي مبطل لما يدعون ، وهو إثبات مماثلة آدم لعيسى (ع) وطيّ ما عداها ، وكأن الدليل سياقه هكذا :
أن آدم خلق من غير أب كعيسى ، فلو كان عيسى إبناً بسبب ذلك لكان آدم أولى لكن آدم ليس إبناً باعترافكم ، فعيسى ليس ابناً أيضاً .
ويظهر أنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلاً على أنّه ابن الله، لان هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب ، فهو قد ولد من غير أب ولا أم ، وعليه فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعي التعجب ، لأن الله قادر على كل شيء ، ولأن فعله وأرادته متناسقان فإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، كذلك ولادة عيسى من أم وبغير أب ليست مستحيلة . (٣٩)
وهذه المحاججة قد أعطت للكلام طلاوة ، ورونقاً خاصاً ، وجعل الجملة مثلاً مأثوراً يفيد في الرد على النصارى وفي الوعظ العام.
ومن الآيات القرآنية التي دار حولها الجدل قوله تعالى : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأرض} النور / ٥٥ .
المراد بالاستخلاف : إعطاء الخلافة الإلهية ، أو إقامة غيره مقامه ليقوم بعمله نيابة عنه ، ومنه:استخلاف الإمام غيره في الصلاة اذا سبقه الحدث من يتم بهم الصلاة . (٤٠)
وهناك اختلاف بين المفسرين حول الذين أشارت إليهم الآية الشريفة من الذين استخلفوا في الأرض قبل المسلمين ، اذ يرى بعضٌ من المفسرين أنّهم آدم وداوود وسليمان (عليهم السلام) مستدلين بما ورد من آيات قرآنية ، منها ما

جاء في سورة البقرة حول آدم (ع) قوله تعالى : {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً} البقرة / ٣٠

وما جاء بصدد داوود (ع) قوله تعالى : {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض} ص/٢٦، وبما أن سليمان ورث حكم داوود (ع) في قوله تعالى : {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} النمل / ١٦ .

لكن مفسرنا ابن شهرآشوب استبعد أن يكون الاستخلاف على الأنبياء ، ورأى انه تعالى كان يظهر _ على أيديهم _ المعجزات ، او يأمر من يَنُصُّ عليهم بالاستخلاف ، وما جرى في الأمم السابقة باستخلافٍ يضاف إلى الله سبحانه بأن تتولاه الأمم بأنفسها [٤١] ، وبذلك يكون العلامة الطبطبائي مؤيداً لابن شهرآشوب حيث يرى أنّ عبارة الذين من قبلهم لا تناسب الأنبياء ، إذ إنّ القرآن المجيد لم ترد فيه هذه العبارة بخصوص الأنبياء ، وانما هي إشارة إلى أمم قد خلت كانت على درجة من الإيمان والعمل الصالح بحيث استخلفها الله في الأرض. [٤٢]

ويرى بعض من المفسرين أنّ الوعد بالاستخلاف خاص بأصحاب الرسول (ص) الذين استخلفهم الله في الأرض في عهد النبي (ص) ، حين أعلن الله كلمته وأكمل دينه ، لكن هذا الرأي مرفوض عند ابن شهرآشوب بقوله : لا يجوز أن يكون الاستخلاف معنيّاً بالأصحاب ، لانه لا يُقال : انه استخلَفَ الا اذا نصَّ على المستخلَف اما بقرآن أو بخبر صحيح. [٤٣]

ويرى آخرون أنّه خاص بالخلفاء الأربعة الذين خلفوا الرسول (ص) فقالوا : أقل الجمع ثلاثة ، ووعد الله حق ، ولم يوجد الا خلافة الخلفاء الأربعة فهي التي وعد الله بها. [٤٤]

وردّ ابن شهرآشوب على ذلك قائلاً : الاستخلاف ههنا غير الإمامة ، بل المعنى : إبقاؤهم في أثر من مضى من القرون ، وجعلُهُم عِوضاً منهم وخلفاً . [٤٥]

يوضح ذلك قوله تعالى : {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ } الأنعام / ١٦٥ ، وقوله تعالى : (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْ دِكُم) الأنعام / ١٣٣ ، وقوله تعالى : {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ} الأعراف / ١٢٩

ويرى بعض آخر أنّ مفهومه واسع يشمل جميع المسلمين الذين اتصفوا بهذه الصفات، ويرى آخرون أنّه إشارة إلى حكومة المهدي (عج) الذي يخضع له الشرق والغرب ويجري حكم الحق في عهده في جميع أرجاء العالم ، ويزول الاضطراب والخوف والحرب وتتحقق للبشرية عبادة الله النقية من كلّ أنواع الشرك ، إذ يتفق المسلمون كافة من سنة وشيعة على ان المهدي (عج) يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد ان مُلئت جوراً وظلماً ، وينتج من ذلك أن تثبت أسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين في كل عصر وزمان ، ، وأنّ لهم الغلبة والحكم ذا الأسس الثابتة.

وهذا ما أكده ابن شهرآشوب في (كتابه) بقوله : اذا سُلِمَ بأنّ المراد من الاستخلاف الإمامة فقال علماء أهل البيت (عليهم السلام) إنّما يكون ذلك عند

قيام المهدي (عليه السلام) لقوله تعالى : {وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً} النور / ٥٥ ،وما كان ذلك إلى أيامنا هذه. (٤٦)
ومن المسائل الأخرى التي دار حولها الجدل مسألة زواج المتعة في قوله تعالى : {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} النساء / ٢٤ .
فمن المتعيَّن أن يُحمل الاستمتاع المذكور في الآية على زواج المتعة ، وقد اشتقت لفظة (استمتعتم) من كلمة المتعة والتي تعني الزواج المؤقت.
والمتعة تعني اللذة ومنه متعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ومتعة الحج ، لأنه انتفاع والتمتع : الانتفاع على وجه يكفل إرواء الحاجة و ويدوم زمناً طويلاً. (٤٧)
وزواج المتعة : عقد نكاح بين رجل وامرأة ليس بينهما مانع شرعي يمنع تزاوجهما وينعقد بإيجاب وقبول من الرجل والمرأة وبمهر معلوم. (٤٨)
وقد اتفق أهل البيت (عليهم السلام) وهم أعلم الناس بأسرار الوحي على تفسير الآية المذكورة بهذا المعنى (الزواج المؤقت) وقد وردت في هذا الصعيد روايات كثيرة منها :
عن الإمام الباقر (ع) أنّه قال في جواب عبدالله بن عمير الليثي الذي سأل عن المتعة: ((أحلها الله في كتابه وعلى لسان نبيه فهي حلال إلى يوم القيامة)) (٤٩).
وعن الإمام الصادق (ع) أنّه قال : ((المتعة نزل بها القرآن وجرت بها السنة من رسول الله (ص)) . (٥٠)
وقد أكد ابن شهرآشوب أنّ قوله تعالى (فما استمتعتم) دلالة على النكاح المؤجل لأنه – تعالى – سمى العوض عليه أجراً ، ولم يُسَمِّ العوض عن نكاح المتعة بهذا الاسم في القرآن بل سماه نَحْلاً وصَدَاقاً وفرضاً ، وزيادة على هذا أكد ابن شهرآشوب : ((بأن لفظ الاستمتاع لا يفيد الا نكاح المتعة)) . (٥١)
وزواج المتعة كان أمراً مشروعاً في صدر الإسلام ، بل كان المسلمون يعملون بهذا الحكم ، والعبارة المعروفة عن عمر بن الخطاب : (متعتان كانتا على عهد رسول الله وانا محرمها ومعاقب عليها متعة النساء ومتعة الحج) (٥٢)
دليل واضح على وجود هذا الحكم في عهد النبي (ص) ، غاية ما في الأمر أنّ من خالف هذا الحكم إدعى انه قد نُسخ فيما بعد ، وحرم هذا النوع من الزواج.
وفي قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ... } المؤمنون / ٥ -٦ + المعارج ٢٩ – ٣٠
فإن الخلاف قائم حول المنكوحة بالمتعة هل هي زوجة أو لا ؟ فمنهم من قال أنها ليست بزوجة ، لأنها لا تُورث ولا ترِث ، ولا تجب عليها العدة _ عند وفاة الزوج – أربعة أشهر وعشرا ، ولا يلحقها الإيلاء والظهار والولد ...
أجاب ابن شهرآشوب عن ذلك قائلاً : إنّ فقد الميراث ليس علامة لفقد الزوجية ، لان الزوجة الذمية والأمة والقاتلة لا يرثن ولا يورثن ، وهن زوجات ، والأمة عندهم زوجة وعدتها شهران وخمسة أيام ، وإذا جاز تخصيص ذلك

بالدليل خصصنا المتمتع بها مثله ، وإنّ من الزوجات مَنْ تبي ن بغير طلاق ، كالملاعنة والمرتدة والأمة المبيعة . [٥٣]

فكان جواب ابن شهرآشوب متفقاً مع ما اتفقت عليه الإمامية من أنّ ((المتمتع بها ليست بزوجة ولا ملك يمين)) [٥٤]

وهذا النزاع شغل مساحة كبيرة من جهود علماء الشيعة من بين المذاهب الفقهية وأصبحوا بذلك هدفاً لاعتراض المذاهب الأخرى ، وجعل بعض المغرضين هذا الالتزام ذريعة للتهريج ضد الشيعة ، واتهامهم بشتى التهم ، فهم يعتبرون ذلك مخالفة، ووصفها بعض آخر بـ (الزنا) متناسين الأدلة الشرعية الدالة على جوازها من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث السنة الشريفة ، وسيرة الصحابة ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فالجدل والاستدلال في القرآن يعامل الخصوم بما يتناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية فطبائع الناس مختلفة ، وأهواؤهم متضاربة ، ومسالكهم في طلب الحق متفاوتة فكثيراً ما نجد جدل القرآن مع المشركين جدل هداية ودلالة ، وقد يشتمل على تخطئة بعض مزاعمهم ، بينما يكون مع أهل الكتاب جدل تخطئة وإلزام ، لأنّهم على علم أما جدل القرآن مع المنافقين فتبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوباً بالتهديد والوعيد ، لذلك جاء القرآن العزيز حجة الرسول الكبرى ، وفيه من الأدلة والمناهج العقلية ما يقنع ال ناس جميعاً على اختلاف أصنافهم ، وتباين مداركهم وأفهامهم ، وجاء أسلوبه البياني والفكري بحيث لا يعلو على مدارك طائفة ولا ينزل على مدارك أخرى ، بل يصل إلى مدارك الجميع ، يجد فيه الفيلسوف بغيته والمثقف طلبته ، والعامة غايتهم .

هذا فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، ونفس الأمر نجده في سنة المصطفى (ص) ، إذ في سيرته نجد نماذج تدفع المسلم لان يتأسَّى ، ويقتدي به في الدعوة ، ومجادلة الآخرين، قال عز وجل في كتابه المنزل : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } الأحزاب / ٢١ ، فمن ذلك ما يروى أنّ النصارى أتوا إلى رسول الله (ص) فخاصموه في عيسى ابن مريم (ع) وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان فقال لهم النبي (ص) :

ألستم تعلمون أنّ ربنا حي لا يموت ، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال: ألستم تعلمون أنّ ربنا قيّم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : أفلستم تعلمون أنّ الله عز وجل لا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً الا ما علم ؟ قالوا : لا ، قال فأن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أنّ ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذي كما يتغذى الصبي ؟ ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟[٥٥]

قال الراوي : فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً ، فأنزل الله تعالى : {الم ۝ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } آل عمران / ٢ .

واضحٌ من خلال هذه الرواية كيف يستخدم معهم النبي الكريم (ص) الأدلة البرهانية، والبديهية التي لا يجحدها إلا مكابر أو معاند ، فالإله لا يمكن أن يدخل في بطن امرأة ، ولا يمكن أن يأكل الطعام ، ولا يحدث الحدث ، لان هذه صفات نقص لا تليق بالكمال الإلهي .

إنّ الاستدلال النبوي بدا واضحاً جلياً يقنع الأميّ الجاهل كما يقنع العالم المتبحر ، ومثله الاستدلال القرآني قال تعالى : {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ... } المائدة / ٧٥ .

ومن الأمثلة التي أفحم النبي (ص) فيها أهل الكتاب ما جاء أنّه أتى برجل وامرأة من اليهود قد زنيا فقال لليهود ما تصنعون بهما ؟ قالوا : نسخِّم وجوههما ونخزيهما ، قال: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فجاؤوا ، فقال الرجل ممن يرضون : يا أعور أقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع فيها ، فوضع يده عليها ، قال : أرفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيه آية الرجم تلوح ، فقال : يا محمد أنّ عليهما الرجم ولكنا نكاتمه ، فأمر بهما فرُجِما . (٥٦)

لقد ألزمهم النبي محمد (ص) بالتحريف ، وكتمان الحق فلم يجد أعورهم مناصاً من الاعتراف بذلك .

هذه الأمثلة القرآنية الكريمة والنبوية الشريفة تدل دلالة واضحة على أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية كانا دافعاً قوياً وحافزاً كافياً لاستثارة كل مسلم صادق في إسلامه للدفاع عن الإسلام والدعوة اليه.

المبحث الثاني

الجدل والحوار في مسائل التشابه في القرآن الكريم

الإقناع هو السبيل التي سلكها القرآن الكريم في استقطاب الناس نحو الدين الحق الذي جاء به ، وهو العقيدة الإسلامية ، واستقطاب الناس يكون على نحو الجديد من الآراء والمعتقدات التي تشتمل عليها الدعوة الإسلامية ، أو نحو الرفض للمواريث الثقافية التي تتعارض مع الدعوة الجديدة والتي أعلن القرآن عن أنها غير صالحة للحياة لما فيها من باطل وما فيها من فساد يعود على الناس بالضرر .

والاقتناع هو الهدف من كلّ العمليات التي كان يقوم بها القرآن الكريم في عقول الناس وقلوبهم ،الاقتناع الذي يؤكد الجديد في العقول ، وفي القلوب ، ويهزم القديم في أنفس الناس ، ومن هنا اعتمد القرآن الكريم في عملية الإقناع على أسلوب الجدل والحوار ، وليس على القسر والإكراه .

قال تعالى في سورة البقرة : {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِ نَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة / ٢٥٦ ، ويقول في سورة يونس : {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن

فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَـأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } يونس / ٩٩ ، ويقول في سورة الأنعام : {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَ اءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } الأنعام / ١١١

والجدل والحوار أنّما يتوجهان في الحقيقة إلى العقل البشري ، الأمر الذي تدرك معه إلى أي حد كان القرآن الكريم يعتمد على العقل في تكوين الإيمان ، ومن هنا جعل القرآن الكريم الكفر آفة عقلية ، والكفرة كالأنعام ، أو أضل أنّهم شر الدواب[٥٧] ، جاء في القرآن الكريم : {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} البقرة / ١٧١ .

يقول صاحب تفسير الأمثل عند تفسيره للآية : صفتهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم كصفة الراعي للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها في سَوقِها إلى المرعى ، ودعوتها إلى الماء ، وزجرها عن الحمى ، فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفت من نعاقه بالتكرار ، شبّه حالهم بحال الغنم مع الراعي ، يدعوها فتُقبِلُ ويزجرها فتنزجر ، وهي لا تعقل ما يقول ، ولا تفهم له معنى ، إنّما تسمع أصواتاً تقبل لبعضها ، وتدبر للآخرين بالتعويد ، ولا تعقل سبباً للإقبال ، ولا للإدبار ، الكافر كالحيوان يرضى بألا يكون له فهم ولا علم ، بل يقوده غيره ، ويصرفه كيف يشاء .[٥٨]

الآية صريحة في أنّ التقليد بلا عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وليس القصد من الإيمان أن يذلّل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عقله ، وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر ، لأنه يفهم سوء عاقبته ، ودرجة مضرته في دينه ودنياه، ولهذا وصف الله الكافرين بأنهم صمٌّ بكمٌّ فهم لا يعقلون.

والفرق بين الحوار والجدل فيما هو الواضح من استخدامات القرآن الكريم لكل منها : إنّ الحوار يكون عندما يضطرب الذهن ، ويصبح العقل في حيرة من أمر نفسه وأمر قضية من القضايا أو مسألة من المسائل ، ويراد من الحوار أن يخرجه من كل ذلك وتكون مرادّة الكلام هينة لينة أو غير قاسية وغير عنيفة .[٥٩]

أما الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع فكري حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل ، ويكون الهدف عند كلّ واحد من المتجادلين هو هزي مة الآخر فكرياً والانتصار عليه .[٦٠]

والعمل على تحقيق هذا الهدف قد يدفع كل واحد من المتجادلين إلى أن يعتمد على أي سلاح يُمكّنه من النصر والغلبة حتى ولو كان اعتمادا على ما هو باطل ، إذ الغاية في هذا الموقف هي التي تبرر الوسيلة ، ومن هنا سلك القرآن الكريم مسلكاً خاصاً في الجدل ، ووضع النبي (ص) القواعد التي يمارس الجدل على أساس منها، القواعد التي تعتبر من آداب الجدل القرآني وأخلاقياته.

يقول تعالى لنبيه الكريم (ص) : {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ} النحل / ١٢٥ ، ويقول :{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ... } العنكبوت / ٤٦ .

ولم تقف آداب الجدل في القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن فقط ، وإنما تجاوز ذلك إلى أخلاقية أخرى من أخلاقيات الجدل القرآني وهي أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل وليس الباطل ، ومن هنا نهى القرآن الكريم النبي (ص) أن يجادل من ليسوا على الحق ، وهو نهي يقصد به جميع المسلمين .(٦١)

يقول تعالى : {وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً} النساء / ١٠٧ ، ويقول : {هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} النساء / ١٠٩ .

ولأن الجدل يجب أن يكون في سبيل الحق ، بيّن الله لنا عقوبة الذين يجادلون في سبيل الباطل ، يقول الله تعالى : {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} غافر / ٥

وكما وضع القرآن الكريم لنا آداب الجدل وأخلاق ياته ، حدثنا عن طبيعة الإنسان وكيف أنّه يحب الجدل والمراء ، يقول تعالى : {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً} الكهف / ٥٤ .

ويقول : {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} الزخرف / ٥٧ – ٥٨ .

وصور الحوار التي جاء بها القرآن الكريم تختلف عن صور الجدل من حيث إنّ الجدل في العادة يكون بين طرفين ، بينما الحوار قد يكون بين الإنسان ونفسه أو بين الإنسان وعقله ، والحوار حين يكون بين طرفين يكون الطرفان في مستويين مختلفين من حيث المعرفة والعلم الذي يدور حوله الحوار ، أمّا الجدل فيكون في الغالب بين طرفين في مستوى واحد ويعمل كل منهما على أن يهزم القوم الذي يجادل وينتصر عليه .

ومهمة الحوار أنّه ليس مجرد إيصال القضايا التي يختلفون فيها إلى وضوح الرؤية لإيجاد قناعة مشتركة حولها ، بل هو أيضاً يساهم في تبريد الأجواء النفسية لدى المتحاورين ، لالتقائهم على المفاهيم المشتركة ، أو المعاني المتقاربة مما يخلف مشاعر حميمة فيما بينهم ، كما أنّه يخلق حركة فكرية تكون سبباً في تعميق الوعي وشمولية النظرة ، كما أنّه يمكن أن نجعل من الحوار منهج تربية في تكوين القناعات بشكل تدريجي .(٦٢)

ونأخذ الآن في استعراض بعض صور الحوار القرآني التي تعرّض لها ابن شهرآشوب في كتابه (متشابه القرآن و المختلف فيه) ، ونبدأ من ذلك بحوار الإنسان مع نفسه .

<u>والصورة البارزة في القرآن الكريم عن هذا النوع من الحوار</u> : هي تلك التي تصور حوار إبراهيم (ع) مع نفسه ، والتي تكشف عنها الآيات التالية :

يقول الله تعالى : {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَا وَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} الأنعام / ٧٥ – ٧٦ .

أجاد ابن شهرآشوب في تصوير أسلوب الحوار الذي دار بين إبرا هيم وقومه

قال ابن شهرآشوب ؛ فقوله : (قال هذا ربي) جاء على وجه الاستخبار ، والتنبيه والإنكار ، وقال أيضاً : قد يأتي قوله تعالى : (قال هذا ربي) على سبيل الاستفهام ، إلا أنّ حرف الاستفهام ساقط ، كما جاء عن ابن عباس (فلا اقتحم العقبة) أصله : أفلا اقتحم العقبة ؟ (٦٣)

أنّ إبراهيم(ع) كان يقف موقفاً يجعل من نفسه طرفاً للحوار الذاتي أمام دعوة الحق والباطل،فتراه يطرح قضايا الباطل من خلال أفكاره ،ثم يبدأ عملية التساؤل والحوار الذاتي الذي يجود فيه من نفسه شخصاً ثانياً يتأمل ويناقش من أجل الوصول إلى الحق . (٦٤)

إنّ الحوار النفسي هنا أنما يتطلع إلى معرفة الحقيقة الدينية عن الإله الذي ليس له شريك .

<u>والصورة الثانية من صور الحوار</u> : هي التي لا يكون فيها الطرفان من مستوى ثقافي واحد ، وإنما هناك من يحاور ليعرف الحقيقة ممن هو أكثر دراية بها ، والصورة البارزة هنا هي التي وردت في سورة الكهف ، والتي يقول الله تعالى فيها : {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً } الكهف / ٦٥

يحتمل ابن شهرآشوب أن يكون الله تعالى قد أعَلمَ هذا الغلام ما لم يُعلمه موسى ، وهذا لا يعني أن ذلك العالم كان أفضل من موسى في العلم ، فقد يعلم أحدنا شيئاً من المعلومات لا يعلمه من هو أفضل منه . (٦٥)

ويستمر الحوار لكنه اعتمد في هذه المرة على النهي ، ففي قوله تعالى : {فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } الكهف / ٧٠ .

فقد فسَّر ابن شهرآشوب هذا النهي بأنه نهي عن نوع العلم الذي لم يبلغ منزلته بعد ، وقوله تعالى و (أُحدث) إنّما يدل على سؤال تفاصيل ما خفِي عليه من النوع الذي هو بصدده لئلا يتولد فيه شبهة . (٦٦)

ويأتي الجواب عن كل الأسئلة بقوله تعالى : {إِنَّكَ لَن تَ سْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً}الكهف/٦٧ ، فالنفي هنا لا يعني هنا نفي الاستطاعة على ما ظنّه الجهال ، فلو كان كذلك لكان العالم وهو في ذلك سواء ، فلا معنى لاختصاصه بنفي الاستطاعة.(٦٧)

وتشبه هذه الصورة صورة الحوار الواردة في قصة الخلق ، والذي دار بين المولى سبحانه وتعالى والملائكة وإبليس .

والصورة التي نختم بها صور الحوار القرآني هي تلك الصورة التي يكون الاهتمام فيها بالفكرة ذاتها ، وليس بأطراف الحوار ، يكون الاهتمام بالفكرة

لتجليتها، وإبراز كل بعد من أبعادها بغض النظر عمن يقوم بينهما الحوار ، وانه في مثل هذه الصو رة لا يلزم أن يكون طرفا الحوار من مستويات ثقافية مختلفة فقد يكونان من مستوى واحد .

والصورة التي نستعرضها هي تلك الصورة التي أراد القرآن الكريم أن يدلل بها على إمكانية البعث ، وعودة الحياة إلى الميت مرة أخرى .

يقول الله تعالى : { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَ وْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عام .... } البقرة /٢٥٩

بيّن ابن شهرآشوب فساد قول من يقول : إنّ المعارف ضرورة ، لأنها لو كانت ضرورة لما حاجَّ إبراهيم الكافر ، ولا ذكر له الدلالات على إثبات الصانع وفيها دلالة على فساد التقليد وحسن المحاجّة والجدال. (٦٨)

وهنا يلاحظ جواب لمن أنكر البعث بعد الإماتة ، وما فيه من أدلة عظيمة وأسلوب رائع يأخذ بمجامع القلوب ، ويسوقها طوعاً إلى الإذعان والتصديق ، ومنه ينكشف مدى تأثير الدليل وطريقة عرضه ، إذ بها يخلق من الطرف الآخر إنسانا سَلس ِ الانقياد .

ونستطيع أن نستعرض هاتين الصورتين للجدل بين الأنبياء المرسلين وأقوامهم يقول الله تعالى من سورة هود : {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} هود / ٥٤ .

قول هود (ع) (إني بريءٌ) كما فسره ابن شهرآشوب إخبار عما أجابهم به هود بان قال : أشهد الله على أدائي إليكم ، ونصيحتي إياكم ، وتكذيبكم إياي ، وقوله تعالى : {وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} إنما أشهدهم على ذلك ، وان لم يكونوا أهل الشهادة من حيث كانوا كفاراً فُسّاقاً ، إقامة للحجة عليهم ، لا لتقوم الحجة بهم .(٦٩)

وفي قوله تعالى من السورة نفسها حاكياً عن شعيب : {اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ} هود / ٩٠ ، فسر ابن شهرآشوب الاستغفار بالتوبة ، وهذا الخطاب مُوجه إلى المشركين بدعوتهم إلى الاستغفار من الشرك بمفارقته بأعمال الخير ، والإقامة على التوبة ، والإصرار عليها . (٧٠)

وواضح من الجدل أنّ المحور هنا هو الدعوة لله ، ولكنهم يأخذون على هود ما يدفعهم إلى رفض هذه الدعوة ، ويأخذون عليه أنّه لم يأتهم ببينّة ، وأنهم لن يتركوا آلهتهم التي يدعوهم إلى تركها ، وأنهم لن يؤمنوا به ولا بما جاء به ، وواضح أيضا أنهم قالوا هذا القول على سبيل التحدي ، وأنّه واجه هذا التحدي في النهاية بأنه قد أبلغهم رسالة ربهم وأنّ الله قد يستخلف قوماً غيرهم ، ثم ينتهي الحوار بالحكم عليهم باللعنة في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هنا يتبين أنّ المناظرة والجدل لو لم تكن مشروعة لما أمر الله تعالى بها أنبياءه (عليهم السلام) في حين أنّ القرآن الكريم يزخر بمحاججات الأنبياء لأقوامهم، ولاسيما نبينا محمد (ص) وهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذي لا ينتهي حديث عظمته ولا تزيده الدهور الا ألقاً وسناءً.

أما موقف السنة النبوية المطهرة من الجدل والحوار فهو لا يختلف عن حكم القرآن فكلاهما – القرآن والسنة – صنوان لمشرعٍ واحد ، قال تعالى : {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } النجم ٣ ـ ٤ ، ومما ورد من الأدلة والشواهد على مشروعية الجدل والحوار من السنة الشريفة و منها ما رُوِي عن النبي (ص) أنّه قال: ((نحن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبياً)) (٧١).

الهوامش

(١) مفردات غريب القرآن ، ٨٩ + تاج العروس ، ١٤ / ١٠٠
(٢) لسان العرب : ابن منظور ، ١١ / ١٠٥
(٣) المصطلحات : اعداد مركز المعجم الفقهي ، ١٣١٤ + معجم لغة الفقهاء : محمد قلعجي ، ٤٠٥ .
(٤) مقالٌ في الإنسان – دراسة قرآنية ـ : الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، ٩٤
(٥) التعريفات : الجرجاني ، ٨٠ .
(٦) المنطق : الشيخ محمد رضا المظفر ، دار القدير ، قم ، طبعة محققة ١٤٢٧ هـ ، ص ٣٢٣ .
(٧) متشابه القرآن : ١ / ١٩٣ .
(٨) مجمع البيان ١ / ٢٥٤ + الدر المنثور ١ / ٤٠٥ + الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢١٠ .
(٩) شرح عقائد الصدوق أو تصحيح الاعتقاد ، ٢١٩ .
(١٠) متشابه القرآن : ٤ / ٣٦٥ .
(١١) متشابه القرآن : ٢ / ٣٧٥ .
(١٢) متشابه القرآن : ٢ /. ١٩٦
(١٣) الرفث : الفحش في القول .
(١٤) الفسوق : مجاوزة حدود الشريعة .
(١٥) متشابه القرآن : ٤ / ٧٥ .
(١٦) م .ن : ٢٠/٤
(١٧) وهو للعرب على الفرس . (العقد الفريد ٥ / ١١٩) .
(١٨) وهو يوم بين كنانة وهوازن ، وسمي بيوم الفجار ، لان القتال وقع في الاشهر الحرم التي يحرم فيها القتال أيام الجاهلية. (العقد الفريد ٥ / ١٥٢) .
(١٩) لسان العرب ، مادة جَفَر .
(٢٠) وهو يوم لبني تميم على بني عامر (العقد الفريد ٥ / ١٥٠) .
(٢١) متشابه القرآن : ٢ / ٣٥٤ .
(٢٢) متشابه القرآن ٣ / ٣٩٣ .
(٢٣) متشابه القرآن : ٤ / ٤٨٩
(٢٤) متشابه القرآن : ٢ / ١٦٥ .
(٢٥) مجمع البيان : ١ / ٥٤٤ .
(٢٦) متشابه القرآن : ابن شهرآشوب ٣ / ٣٧١ .
(٢٧) متشابه القرآن : ابن شهرآشوب ، ٢ / ١٩٨
(٢٨) متشابه القرآن : ابن شهرآشوب ٤ / ٣٠٨ .
(٢٩) جامع البيان ١٤ / ١٣٧ + مجمع البيان ٣ / ٣٧١ + الجامع لاحكام القرآن ١٠ / ١٢٨ .
(٣٠) متشابه القرآن : ابن شهرآشوب ٤ / ٣٠٩ .
(٣١) م . ن
(٣٢) م . ن .
(٣٣) متشابه القرآن ، ٢ / ٤٨٨ .
(٣٤) ظ / حقائق التأويل : الشريف الرضي ، ١٠٠
(٣٥) متشابه القرآن ابن شهرآشوب : ٢ / ٣٩٩ .
(٣٦) م . ن
(٣٧) التعريفات : الجرجاني ، ٨٢

(٣٨) ظ / متشابه القرآن ١ / ٦٤ .
(٣٩) الامثل : ٢ / ٥٢٢
(٤٠) معجم لغة الفقهاء : محمد قلعجي ، ٦٠ .
(٤١) متشابه القرآن ٣ / ٢٨٣ .
(٤٢) الميزان : ١٥ /.١٥١
(٤٣) متشابه القرآن : ٣ / ٢٨٣
(٤٤) المواقف : الايجي ٣ / ٦٠٤ .
(٤٥) متشابه القرآن ٣ / ٢٨٢ .
(٤٦) متشابه القرآن ٣ / ٢٨٤
(٤٧) المصطلحات ٨١ .
(٤٨) معجم ألفاظ الفقه الجعفري : أحمد فتح الله ، ٢١٨ .
(٤٩) الرسائل التسع ، ١٦٠ + تهذيب الأحكام : الشيخ الطوسي ٧ / ٢٥٠ .
(٥٠) الرسائل التسع : المحقق الحلي ، ١٦٠ + جامع أحاديث الشيعة : السيد البروجردي ، ٢١ / ٧ .
(٥١) متشابه القرآن ٤ / ٢٣٦ .
(٥٢) جامع أحاديث الشيعة ٢١ / ٥ + أضواء على الصحيحين : محمد صادق النجمي ، ٣٩٨ .
(٥٣) متشابه القرآن : ٤ / ٢٣٩
(٥٤) المسائل الصاغانية : الشيخ المفيد ،٣١
(٥٥) مجمع البيان ٢ / ٢٣٥ + جامع البيان ٣ / ٢٢٢ + تفسير الثعلبي ٣ / ٧ + تفسير البغوي ١ / ٢٧٧ + العجاب في بيان الأسباب ٢ / ٦٥٨ + الدر المنثور ٢ / ٣ + تفسير الآلوسي ٣ / ٧٥
(٥٦) صحيح البخاري ٨ / ٢١٣ + فتح الباري : ابن حجر ١٢ / ١٤٩ + عمدة القاري : العيني ٢٥ / ١٩٢ + عون المعبود : العظيم آبادي ١٢ / ٨٦ + تفسير ابن كثير : ابن كثير ٢ / ٦٠ .
(٥٧) الحوار في القرآن : محمد حسين فضل الله : ٩٩ .
(٥٨) ظ / الأمثل ، ٤٨٢ .
(٥٩) حوار مع فضل الله حول الزهراء (س) : السيد هاشم الهاشمي ، ٦٥ .
(٦٠) م . ن .
(٦١) الحوار في القرآن : محمد حسين فضل الله . ١٣٣ .
(٦٢) خلفيات كتاب مأساة الزهراء (ع): السيد جعفر مرتضى ٣١٥/٢.
(٦٣) متشابه القرآن ٣٦٧/٢- ٣٦٨
(٦٤) الأنبياء فوق الشبهات : محمد محمود مرتضى العاملي ١ / ١٦٠ .
(٦٥) متشابه القرآن ٢ / ٤٥٠ .
(٦٦) م . ن ٢ / ٤٥١
(٦٧) كتاب متشابه القرآن ، ٢ / ٤٥١ .
(٦٨) م . ن ١ / ١٨٤ .
(٦٩) متشابه القرآن ٢ / ٣٩٩
(٧٠) متشابه القرآن ٢ / ٤٢٩ .
(٧١) بحار الأنوار ٢ / ١٢٥ + الاحتجاج : الطبرسي ١ / ٥ + تفسير نور الثقلين ٣ / ٩٥ + المناظرات في الإمامة : الشيخ عبدالله الحسن ، ٢٧

المصادر

[١] الاحتجاج : احمد بن علي الطبرسي (ت ٥٦٠ هـ) تح : السيد محمد باقر الخرسان ، منشورات دار النعمان للطباعة والنشر.
[٢] أضواء على الصحيحين : الشيخ محمد صادق النجمي ، تحقيق : الشيخ يحيى كمالي البحراني ط١ (١٤١٩هـ) منشورات مؤسسة المعارف الإسلامية ، قم .
[٣] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، مؤسسة البعثة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

[٤] الإنبياء فوق الشبهات : محمد محمود مرتضى العاملي، ط١(١٤٢٢هـ) ، منشورات الحسين (ع) للطباعة والنشر والتبليغ ،قم -ايران ٠
[٥] بحار الانوار : محمد باقر المجلسي (ت١١١١ هـ) المطبعة ، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، مؤسسة الوفاء ، بيروت .
[٦] التعريفات : علي بن محمد الجرجاني ، دار الكتاب البستانيّ ، بيروت ١٤١١هـ.
[٧] تفسير الألوسي : الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ) ، مجموعة مصادر التفسير عند السنة .
[٨] تفسير البغوي : البغوي ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ، مجموعة مصادر التفسير عند السنة ، منشورات دار المعرفة ، بيروت .
[٩] تفسير الثعلبي : الثعلبي، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور ، ط١ (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م) منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .
[١٠] تفسير القرآن العظيم : أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(ت ٧٧٤ هـ) ط١، ١٤١٢ ، دار المعرفة ، بيروت .
[١١] تفسير نور الثقلين : الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت١١١٢هـ) تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ،ط٤(١٤١٢هـ) منشورات مؤسسة إسماعيليان ، قم
[١٢] تهذيب الأحكام : الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) ، تحقيق : السيد حسن الخرسان ، تصحيح : الشيخ محمد الآخوندي ، ط٤ (١٣٦٥هـ) منشورات دار الكتب الإسلامية
[١٣] جامع أحاديث الشيعة : السيد حسين ابن السيد علي الطباطبائي البروجردي (١٣٨٣هـ) مجموعة مصادر الحديث الشيعية ، القسم العام ، منشورات المطبعة العلمية ، قم ١٣٩٩هـ .
[١٤] جامع البيان عن تأويل آي القران : ابي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠) ط١، ١٤١٥ هـ ،منشورات دار الفكر ، بيروت .
[١٥] الجامع لإحكام القرآن : أبي عبدالله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي(ت ٦٧١ هـ) ط (١٤٠٥ هـ) منشورات دار احياء التراث العربي، بيروت .
[١٦] حقائق التأويل في متشابه التنزيل :محمد بن الحسن الموسوي السيد الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) ، شرحه العلامة محمد رضا آل كاشف الغطاء ، الجزء الخامس ، مطبعة الغري ، النجف الأشرف ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م .
[١٧] الحوار في القرآن : محمد حسين فضل الله ، الدار الإسلامية ، بيروت .
[١٨] حوار مع فضل الله حول الزهراء (س) : السيد هاشم الهاشمي ، ط٢ (١٤٢٢هـ) منشورات دار الهدى ، قم .
[١٩] خلفيات كتاب مأساة الزهراء(ع) : السيد جعفر مرتضى ، ط٥، ١٤٢٢هـ دار السيدة ، بيروت – لبنان .
[٢٠] الدر المنثور : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، ط١ (١٣٦٥هـ) ، منشورات دار المعرفة ، الفتح – جدة .
[٢١] الرسائل التسع : المحقق الحلي (ت٦٧٦هـ)، تحقيق : رضا الاستادي، ط١(١٤١٣هـ) منشورات : مكتبة آية الله العظمى المرعشي ، قم .
[٢٢] شرح عقائد الصدوق (مع أوائل المقالات) : محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ) المطبعة الحيدرية ، النجف ، ط٣ ، ١٩٧٣ م .
[٢٣] صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) منشورات دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ .
[٢٤] العجاب في بيان الأسباب : ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) تحقيق : عبد الحكيم محمد الأنيس ، ط١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) ، منشورات دار ابن الجوزي ، السعودية .

[٢٥] عمدة القاري : العيني (ت٨٥٥هـ) مجموعة مصادر الحديث عند السنة قسم الفقه، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
[٢٦] عون المعبود شرح سنن أبي داوود : محمد شمس الحق العظيم آبادي (ت١٣٢٩هـ) ط٢ (١٤١٥هـ) منشورات دار الكتب العلمية – بيروت .
[٢٧] فتح الباري في شرح صحيح البخاري : الإمام بن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ)، ط٢ ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان .
[٢٨] لسان العرب : ابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) ط١ (١٤٠٥) مطبعة دار إحياء التراث العربي .
[٢٩] متشابه القرآن والمختلف فيه : الإمام الحافظ أبي جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب (ت ٥٨٨ هـ) تح : حامد جابر حبيب المؤمن الموسوي ، ط١ (١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م) ، منشورات جمعية منتدى النشر – النجف الأشرف ، مؤسسة العارف للمطبوعات ، لبنان .
[٣٠] مجمع البيان في تفسير القرآن : أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي
[٣١] (ت ٥٦٠ هـ) تح : لجنة من العلماء والمحققين الاخصائيين، ط١ (١٤١٥) الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .
[٣٢] المسائل الصاغانية : الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) تحقيق : السيد محمد القاضي ، ط١(١٤١٣هـ) منشورات : المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد .
[٣٣] المصطلحات : إعداد مركز المعجم الفقهي ، مجموعة مصطلحات ومفردات فقهية
[٣٤] معجم ألفاظ الفقه الجعفري : الدكتور احمد فتح الله ، ط١(١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) منشورات مطابع المدوخل ، الدّمام .
[٣٥] معجم لغة الفقهاء : محمد قلعجي .
[٣٦] مفردات غريب القرآن : الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) ،ط١ (١٤٠٤هـ) ، منشورات دفتر نشر الكتاب .
[٣٧] مقال في الإنسان – دراسة قرآنية : الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط٣ (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) منشورات دار المعارف ، القاهرة .
[٣٨] مناظرات في الإمامة : الشيخ عبد الله الحسن ، تحقيق عبد الله الحسن ، ط١(١٤١٥هـ)، منشورات أنوار الهدى ، مهر – قم .
[٣٩] - المنطق : محمد رضا المظفر ، دار التعارف و بيروت ، ١٤٠٠هـ .
[٤٠] - المواقف : الايجي (ت٧٥٦هـ) ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، ط١
[٤١] الميزان في تفسير القرآن : السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، لبنان ، بيروت

الخلاصة

لقد شرع القرآن الكريم الجدل والمناظرة ، وجعل لها حدوداً وضوابط ، وأكد على ضروريتها وأهميتها ، وذلك في كثير من آيات الذكر الحكيم وهذا ما يصور لقارئ القرآن الكريم أن للجدل والمناظرة جانباً حيوياً من حياة سائر الأديان.

وكان لابن شهر آشوب دور بارز في هذا المجال ، اذ جمع في كتابه (متشابه القرآن والمختلف فيه) جملة من أقوال المفسرين والفقهاء واللغويين ، وكانت له ردودا ومناقشات وجدل ومناظرات ، فهو ينطلق من القرآن الكريم أساسا في التفسير ، وله طريقة متميزة في الرد وإعطاء رأيه ، فهو يختار ما يراه مناسباً

لحال القول ، ومقوياً لحجته فتارة يرد بالقرآن نفسه ، وتارة باللغة نحواً وبياناً ، وتارة بالأدب شعراً ونثراً .
فقد تميز بمنهج رصين أبان من خلاله رؤية البحث التي يراها صائبة معضدة بالعلمية ، وعمق الرؤيا ، واتساع الأفق الثقافي في جدل منطقي موضوعي.
وبهذا يعد المصنف عالماً موسوعياً ، وأنموذجا للتكامل المعرفي بين العلماء ، فامتاز بالرصانة ورجاحة العقل ، وبهذا كان مدعاة لبروزه على الساحة العلمية والفكرية

Abstract"

13- Of the subjects whit which Ibn Shahr Ashobhad dealt and to which the research paid attention ,is the argumentative deduction where he controvert the interpreters with scientific answers , deep vision and education within an objective logical debate .

14 – The research concludes that the book is an encyclopedic scientist and an example of the cognitive perfection , he is a jurist , usuli , grammarian ,theologist and a poet in addition to the other field , and his book includes all these science . He was known for his distinguished personality , knowledge and education and discernment , and that was a cause to be the leader of the scientific and intellectual field at that time .